المحاضرة الرابعة عشر : موقع التاريخ بين العلوم

هل يمكن تصنيف التاريخ ضمن زمرة العلوم التطبيقية؟

تمهيد:

إذا صدّقنا بمقولة مَن لا تاريخ له لا حاضر له، فإن هذهِ مقولة نؤمن بها أشد الإيمان، فالتاريخ دومًا هو الحافز والدافع للإنسان أن يتقدم ويُحرز شيئًا، فالتاريخ البشري بشكل عام هو علم تخصص به الدارسون وأفردوا لهُ جانبًا عظيمًا من الاهتمام.

فلا شك أنَّ علم التاريخ كباقي العلوم يستند على حقائق علمية ثابتة من خلال الأدلة المروية عن المكان والإنسان، ومن خلال الأدلة المشاهدة الماثلة للعيان. فعلم التاريخ يقوم بتأصيل الأحداث والوقائع الهامة التي مرت على الأرض قبل الحياة البشرية، والأحداث التي جرَت بسبب الإنسان وهو ما يُعرف بالتاريخ البشري أو التاريخ الإنساني.

فعلم التاريخ ــ إذًا ــ يُعطي تصورًا دقيقًا وواضحًا عن العالم القديم، والتجارب التي مرَّ بها الإنسان، وبالتالي تكون هذه الدراسة بابًا من تجنب ما وقعَ بهِ الأقدمون من الأخطاء والتي جرّت عليهم الويلات والدمار. فعلم التاريخ هو دروس ماضية تُفيدنا للتخطيط المستقبلي. يقول ابن خلدون:« إن فن التاريخ محتاج إلى مآخذ ومعارف متنوعة وحُسن نظر وتثبت يُفيضان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط.[1]»

هذا، وقد تخطى النقاش كون التاريخ علمًا أم أدبًا، وتوقف المؤرخون أمام التاريخ كموضوع حيوي لذاته وله أهدافه وموضوعه وأهميته وأسسه وطرائق بحثه. وحتى نبحث في هذه المادة المهمة وتكون الفكرة أكثر وضوحًا، تواجهنا أسئلة متعددة وسنحاول الإجابة عليها قدر المستطاع في حياتنا اليومية. ومن هذه الأسئلة، ما هو التاريخ؟ وما هو الموضوع الذي يتحدث فيه؟ وماهي أهمية دراسة التاريخ للإنسان؟ وماهي العلوم التي يجب على الباحث في هذا العلم أن يكون مُلمًا بها؟ وماذا تقدم هذه العلوم المساعدة للباحث في التاريخ؟ وما مدى صلتها بعلم التاريخ؟.

1- ابن خلدون : **المقدمة**، ج1، تحقيق: على عبد الواحد وافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006، ص 13.

من هنا تأتي أهمية دراسة علم التاريخ وأهم العلوم المساعدة لدراسته. أما العلوم المساعدة لدراسة علم التاريخ، فهي تنقسم إلى قسمين أولهما: العلوم الاجتماعية، ومنها: علم الإنسان، وعلم الاجتماع، وعلم السكان، وعلم الجغرافيا، وعلم الاقتصاد، والعلوم السياسية، وعلم النفس، وأخيرًا علم الأدب والفنون. وثانيهما: وهو يتعلق بعلوم الآثار والتراث؛ ومنها: علم المسكوكات[2]، والأختام، والخطوط، والوثائق، والآثار، واللغات، وفقه اللغة، وأخيرًا النقوش.

تنقسم العلوم إلى ثلاثة أقسام أساسية صنفت كزمر، كل زمرة تضم في كنفها مجموعة من العلوم، مرتبة ترتيبا منطقيا حسب درجة دقة نتائجها ومعقولية ومطلقية نتائجها . فالزمرة الأولى تسمى بزمرة العلوم الفيزيوكيمائية وهي تضم جملة من العلوم مثل الفيزياء والرياضيات والكيمياء والفلك وغيرها، وهي أكثر دقة ومطلقية من غيرها. تعرف حاليا بالعلوم الدقيقة ، والزمرة الثانية هي زمرة العلوم الحيوية، وتضم في طياتها البيولوجيا، وهي أقل دقة من العلوم الدقيقة. والزمرة الثالثة هي زمرة العلوم الإنسانية، وتضم علم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس، وهي كذلك أقل دقة ومطلقية من العلوم الحيوية، ومن خلال ذلك يعد علم التاريخ واحدا من العلوم الإنسانية التي انفصلت عن الفلسفة في وقت متأخر واضعا لنفسه موضوعا ومنهجا خاصا به، غير أن محاكاته للعلوم الأخرى في الموضوع والمنهج لم يمنع من المحافظة على خصائصه الذاتية التي تميزه عن غيره، من ذاتية وتجلي الايديولوجيا في منهجه، وانعدام القيمة وغيرها. لذا كان من الممكن وجوده في مقابل العلوم الأخرى ، يقول لاشلييه Lachelier « إن تقابل الأدب والعلوم يرجع في الأصل إلى ذاتية الإنسان وموضوعية الطبيعة » . وهذا يعني وكأننا أمام وصورة تقابل بين الإنسان كذات والطبيعة كموضوع . غير أن هذا التقابل يميز بين الإنسان الذي يحمل وعيا وقصدية ومشروعا، أما الطبيعة فهي مجموعة من القوانين المطلقة والجامدة، فهي قوانين خاضعة لأسباب آلية مجردة من أي وعي أو قصد أو غائية. فالقصد هو قدرة الذات الواعية للاستعداد لعمل شيء ما، هذا

---

2 ـ **المسكوكات** تتمثل في تلك العملات التي تمّ التداول بها قديمًا من أجل قضاء الاحتياجات المختلفة، وقد انطلقت المسكوكات من مبدأ أنّ هناك أشياء كثيرة في هذه الحياة ذات قيمة مفيدة جوهريًا تستطيع أن تحلّ محلّ بعض الخدمات والاحتياجات في الحياة اليومية، ومن بين هذه الأشياء ذات الجوهر المفيد الحديد أو الفضة، حيث كانت المسكوكات في البداية تعتمد على وزنها ونوع المعدن الذي تم استخدامه في عملية سَكِّها، ومع تطور الحياة الإنسانية تدخلت الحكومات في تحديد القيمة المادية للمسكوكات من خلال تحديد وزنها وجعلها ذات قيمة مادية محددة تبعًا لوزنِها ونوع المعدن الذي صُنعت منه.

الاستعداد يسعى إلى الربط بين كائن الحاضر وكائن المستقبل .فالعلوم الطبيعية بإمكانها أن تتجاهل ذاتية أصحابها ليكون هناك فصل بين الذات والموضوع، أما التاريخ فعلى العكس من ذلك فالإنسان فيه يعد باحثا وموضوع بحث في آن واحد لذا يصعب الفصل بين الذات والموضوع .

إن غاية العلم الطبيعي السعي إلى إقصاء كل عناصر الذاتية، هادفا إلى الكشف عن قوانين الطبيعة، أما عالم التاريخ فلا يستطيع أن يفصل بين ذاته كباحث وموضوع بحثه كمجال للدراسة، لأنه جزء لا يتجزأ من موضوع بحثه، إذ لا يستقيم له حال بمعزل عن سيطرة الميول والعواطف والأهواء .

1ـ هل التاريخ علم أم فن؟

هناك اختلاف بين أهل العلم والتاريخ والأدب في وضع التاريخ وإلى أي فرع يُنسب من فروع الإنسانية. فبعض العلماء ومنهم المستشرق (و.س. جيفونز)، قال: « لا يمكن أن يكون التاريخ علمًا لأنه يعجز عن إخضاع الوقائع التاريخية لما يخضعها له العلم من المعاينة والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة، وبذلك لا يمكن في دراسته استخلاص قوانين علمية يقينية ثابتة، نحو ما هو موجود بالنسبة للعلوم الطبيعية كعلم الكيمياء مثلاً.»[3]وقد أيد هذا الرأي (كارل بوير) في كتابة عقم المذهب التاريخي ومن الأدلة التي أوردها على كذب المذهب التاريخ: إن التاريخ الإنساني يتأثر في سيره بنمو المعرفة الإنسانية وهذا يوضح عدم إمكانية التنبؤ بكيفية نمو معارفنا العلمية، وبالتالي فلا يمكن التنبؤ بمستقبل سير التاريخ الإنساني وهذا يعني أنه يجب أن نرفض إمكان قيام علم تاريخي اجتماعي[4].

أما بعض رجال الأدب فيرون أنه فن من الفنون : « وإن العلم لا يمكنه أن يعطينا عن الماضي سوى العظام المحروقة اليابسة وأنه لابد من الاستعانة بالخيال لكي تُنشر تلك العظام

---

3 ـ إسماعيل أحمد محمد ياغي: **مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه**، العبيكان، ط2، الرياض، 1424هـ ، ص16.

4 ـ شوقي الجمل: : **علم التاريخ ، نشأته وتطوره ووضعه بين العلوم الأخرى ومناهج البحث فيه**، المكتب المصري للمطبوعات ، ط1، القاهرة، 1997، ص73.

وتُبعث فيها الحياة، ثم هي بحاجة كذلك إلى براعة الكاتب حتى تبرز في الثوب اللائق بها »[5]. ويؤيد ابن خلدون هذا الرأي بوصف التاريخ فن من الفنون، ففي مقدمته عرف التاريخ، بقوله:« إن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال وتسمو إلى معرفته السّوقة والأغفال وتتنافس فيه الملوك والأجيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهّال.»[6] ويتفق مع هذا الرأي بعض المؤرخين الذين يروون أن التاريخ نوع من الأدب فهو يهتم بالتدوين القصصي للأحداث. والقصة نوع من الإنشاء الأدبي، وهو فن يحتاج إلى براعة الكاتب ليظهر لنا القصص التاريخية بمظهرها المناسب.[7]

ويرى كثير من العلماء والمفكرين القدماء والمحدثين، من أمثال أفلاطون وهيجل وماركس و أوجست كونت، أن التاريخ علم يبحث في الماضي ويتبع تطور المجتمعات في العصور السابقة. ويخلص المؤرخ الإنجليزي بيوري الموضوع بقوله: « إن التاريخ علم لا أقل ولا أكثر.»[8] ويرد **هرنشو** على مَن قال : إن التاريخ ليس بعلم، بقوله: « إنه على الرغم من أنه لايمكننا أن نستخلص من دراسة التاريخ قوانين علمية ثابتة على غرار ما هو كائن في العلوم الطبيعية فإن هذا لا يجوز أن يجرده من صفة العلم.»[9] ويرى أنه يكفى في إسناد صفة العلم إلى موضوع ما أن يمضى الباحث في دراسته، مع سعيه إلى توخي الحقيقة وأن يؤسس بحثه على حكم ناقد أطرح منه هوى النفس، وباعد نفسه عن كالافتراض سابق، مع إمكانية التصنيف والتبويب فيه.[10]

ويذهب **هرنشو** إلى أن التاريخ ليس علم تجربة واختبار بل هو علم نقد وتحقيق وإن علم الجيولوجيا هو أقرب العلوم الطبيعية إليه، فالمؤرخ والجيولوجي يدرسان آثار الماضي ومخلفاته حتى يستخرج ما يمكن عن الماضي والحاضر على حد سواء، بل عمل المؤرخ يزيد عن عمل الجيولوجي بدراسته وتفسيره العامل البشرى الانفعالي للوصول إلى الحقائق

---

5 ـ حسن عثمان: **منهج البحث التاريخي**، دار المعارف، ط11، القاهرة، 1993، ص16.

6 ـ ابن خلدون : **المقدمة**، ج1 ، مرجع سابق، ص ص 9 -10.

7 ـ شوقي الجمل: : **علم التاريخ ، نشأته وتطوره ووضعه بين العلوم الأخرى ومناهج البحث فيه**، مرجع سابق، ص 73.

8 ـ شوقي الجمل: : **علم التاريخ ، نشأته وتطوره ووضعه بين العلوم الأخرى ومناهج البحث فيه**، مرجع سابق ، ص 74.

9 ـ عيد سعيد مرعي : **منهج البحث التاريخي**، مكتبة الخبتي، بيشة، 1426هـ ، ص9.

10 ـ المرجع نفسه، ص 10.

التاريخية قدر المستطاع. [11] وعلى ذلك، يمكن القول: إن التاريخ مزاجًا من العلم والأدب والفن في آن واحد.

2 ـ العلوم الإنسانية معرفة حية لذهن حي

إن ما يميز العلوم الإنسانية و علم التاريخ عن العلوم الطبيعية هو تجذر عنصر الوعي، من خلال وعي الإنسان بنفسه كذات، ووعيه بالآخرين كجماعة، وفق مسار متحرك في الزمان، على عكس النظام الآلي الذي يطبع عالم الطبيعة، الذي يمثل مادة ثابتة ومطلقة بالرغم من تغيرها المستمر وسيروتها الدائمة ظاهريا .

إن المؤرخ لا ينظر إلى الظاهرة التاريخية نظرة خارجية ظاهرية، لأنه عندما يدرس الظاهرة فإنه يتعدى طابعها الظاهري، قاصدا بطنها ليكشف عن القوانين والأسباب التي تتحكم فيه ، وتحركها . وهذا ما يجعل عالم الإنسان عالم حيوي بامتياز، عالم تطبعه الحيوية والإبداع . أما في مقابل ذلك فعالم الطبيعة يتميز بالرتابة والثبات ، لأن الإنسان في تغير مستمر نفسيا واجتماعيا ومعرفيا .... وهذا ما يجعل وقائع وأحداث التاريخ وقائع فريدة من نوعها . والربط بين عنصري الوعي والإبداع المحكومين بغائية يضعنا أمام مركب جديد لا يمكننا تجاهله في العملية التاريخية ألا وهو عنصر الحرية . أما حينما يتعلق الأمر بالطبيعة فإننا نكون أمام حتمية صارمة ، لا تحتاج على أدوات للبحث والدراسة . فمتى توفرت بالشكل المناسب حصل الاكتشاف .

3 ـ تصنيف العلوم الإنسانية :

بعد التصنيف الحاصل في مجال البحث في الظواهر بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، يمكن أيضا أن نتحدث عن تصنيف خاص داخل العلوم الإنسانية نفسها، حيث أن التطور الحاصل في مجال العلوم الطبيعية الذي أبهر الإنسان، قاد هو بنفسه إلى محاكاة القوانين والنتائج المحصل عليها في مجال العلوم الدقيقة إلى محاولة تطبيقها على العلوم الإنسانية وهو ما أدى إلى نقل العلوم الإنسانية من حالة ما قبل العلمية، إلى الحالة الناموسية. حيث كانت في مقدمتها المقارنة مع العلوم الطبيعية ، لتتساءل عن إمكانية الحصول على نتائج

11 ـ نقلا عن حسن عثمان: **منهج البحث التاريخي**، مرجع سابق، ص 17.

مماثلة في العلوم الإنسانية كما هو الشأن في العلوم الطبيعية . غير أن الاختلاف الحاصل بين العلوم الإنسانية والعلوم الوضعية جعل المهتمين بالعلوم الإنسانية يشعرون بخيبة أمل حيال أبحاثهم والنتائج المحصل عليها، وهو ما جعلهم يتحججون بالمراحل الابتدائية لأبحاثهم. يأملون في نتائج باهرة تضاهي نتائج العلوم الطبيعية . خاصة التطور الخلاق الذي عرفته العلوم الاجتماعية في مجال اقتحام العوائق الابستيمولوجية . وأخص بالذكر جملة النجاحات التي حققتها طرائق الإحصاء [12]. حيث فتح لهم مجال البحث أمال اقتحام المنهج التجريبي وضرورة نقله من مجال البحث في الطبيعة إلى مجال البحث في الإنسان ، وهو ما خلق فرضية صعوبة تطبيق المنهج التجريبي على الظاهرة الإنسانية والظاهرة الاجتماعية متعدين الفرضية الكلاسيكية التي تقول بالاستحالة .

إن اقتحام مجال البحث التجريبي، من قبل العلوم الإنسانية في القرن الثامن، عشر عجل بظهور موجة استقلال العلوم الإنسانية عن الفلسفة والتي كانت بدايتها الأولى بالتاريخ ثم علم الاجتماع ثم علم النفس . حيث تولد عن ذلك صنف من العلوم الإنسانية والاجتماعية عرف بالعلوم الناموسية .

أ ـ العلوم الناموسية :

لقد بات من الممكن استخدام المنهج التجريبي في العلوم الإنسانية، ونقله من مجال العلوم الدقيقة ، حيث لم يبق حكرا على علوم الطبيعة فقط، مستخدمين في ذلك الملاحظة والفرضية والتجريب . وفي خضم ذلك بات من الممكن استخدام التجريب بأوسع معانية وما يقتضيه من ملاحظة منهجية مقترنة بالتحريات الإحصائية وتحليل التباين والضبط العلاقات و الامتدادات بين العلوم وغيرها .

إن من بين غايات العلوم الناموسية هو السعي لاستخراج القوانين التي تتحكم في الظاهرة والتي تعد سببا في ظهورها، فإذا كانت هذه العلاقات تعبر عن قانون يفسر الظاهرة توجب أن تكون هذه العلاقات ثابتة نسبيا . معبرة عن وقائع عامة أو علاقات ترتيبية وتحليلات بنيوية . معبرة عن نفسها بلغة عامة لغة الألفاظ أو بلغة خاصة هي لغة الرموز والإشارات . وبالرغم من وجود العوائق الابستيمولوجية التي تقف في وجه العلوم الناموسية

12 ـ عادل العوا : **العلوم الإنسانية وإشكالية المنهج** ، دار طلاس ، دمشق ، 1995 ، ص 27 .

للإنسان وتحول بينها وبين المنهج التجريبي، إلا أنها اتخذت من العلوم الطبيعية معيارا لها في البحث، من أجل بلوغ الدقة واليقين والمطلقية على النحو الذي هي عليه العلوم الدقيقة . فكانت من طموحات العلوم الناموسية للإنسان بلوغ درجة الضبط والدقة التي تجعل من بحوثها لا تنصب إلا على قليل من المتغيرات في آن واحد . حيث تختلف هذه الزمرة عن العلوم التاريخية التي تتشابك في حقل دراستها معها في وحدة الموضوع ألا وهو الإنسان .

ب ـ العلوم التاريخية للإنسان :

من الواجب أن نميز بين التاريخ كجملة من الأحداث والوقائع الماضية التي قام بها الإنسان Histoire وبين علم التاريخ كفاعلية فكرية إنشائية Historiographie لضرورة عدم الخلط بين سياق الحوادث كما حدثت في الواقع، ورؤية الإنسان لها. يقول جورج سانتيانا[13] في كتابه مولد الفكر « من بين المعاني الكثيرة التي تعنيها كلمة تاريخ يجب أن لا نخلط بين معنيين هما :

أولا سياق الحوادث كما تقع فعلا ، وثانيا مشهد هذه الأحداث الذي يلتقطه المؤرخ ويضمنه كتابه . التاريخ في المعنى الأول دفق هائل، وفي الثاني تأليف محدود .»

ومادام المعنى الثاني هو الذي يعنينا في هذا المقام، فإن السؤال الذي ينبغي طرحه هو : ضمن أية شروط تكون المعرفة التاريخية ممكنة وصحيحة ؟

ومن خلال هذا التساؤل يمكن أن نلج إلى زاوية أخرى تتعلق بمشكلة الحقيقة في التاريخ مقارنة بالعلوم الأخرى، فنتناول مشكلة العلمية والموضوعية في التاريخ ، وهو ما ينطوي تحت عنوان الفلسفة النقدية للتاريخ، وهو القسم النقدي التحليلي من قسمي فلسفة التاريخ .

إن الفلسفة النقدية للتاريخ تتناول التحليل المنطقي والتصوري للمفهومات التي يقوم عليها البحث التاريخي، ومن بين مباحثها دراسة مناهج البحث في علم التاريخ من وجهة نظر فلسفية، وهو ما يتعلق بممارسة الفحص النقدي الدقيق لمنهج المؤرخ أو لأدواته العقلية فيدرس

---

13 - **جورج سانتيانا** 1863 - 1952 من أنصار الواقعية النقدية ، كان يعترف بالوجود الموضوعي للعالم المادي ، ويعتقد أن الجواهر وحدها هي التي يمكن إدراكها أي الصفات الواقعية أو الممكنة للأشياء والتي تظهر في الإدراك كعلامات للموضوعات .

طبيعة الفكر وقوانين المنطق والاتساق والعلاقات بين أفكارنا والواقع وطبيعة الحقيقة التاريخية ومدى صلاحية المنهج الذي نستخدمه للوصول إلى الحقيقة والمعرفة، «إن فلسفة التاريخ تقوم بدور الناقد الأعلى إذ أنها تقوم باختبار دقيق لما يدعيه أصحاب المنهج التاريخي من معرفة أو حقيقة .»[14] أما القسم الآخر في فلسفة التاريخ المعروف بالفلسفة التأملية للتاريخ فتركيبي و تأملي ويتناول محاولة الكشف عن المعنى أو المغزى من المجرى العام للتاريخ . ويطلق عليه اسم الفلسفة التأملية للتاريخ وهي المهمة التقليدية الأقدم في مجال الفلسفة .

4 ـ العلوم المساعدة لدراسة التاريخ

إن المؤرخ أو الدارس للتاريخ عليه أن يعلم إن هذه الدراسة تتطلب منه الجد والاجتهاد والمثابرة والصبر والنصيحة .والتاريخ شأنه شأن بقية العلوم والمعارف؛فالعلوم الإنسانية متداخلة ومترابطة فيما بينها، بحيث لا يمكن أن تدرس علمًا مستقلًا عن بقية العلوم والمعارف الأخرى. فعلى سبيل المثال، لا يستطيع الدارس أن يفهم معاني القرآن الكريم دون أن يتقن اللغة العربية، وعلوم القراءات والتجويد... إلخ، وكلما ازدادت معرفته بهذه العلوم ازداد فهمه ومعرفته بمعاني القرآن الكريم.

ونِعْمَ ذلك المثال بالشبه لدراسة علم التاريخ والتي تحكمها علاقة قوية بمختلف أنواع المعارف الإنسانية، لهذا كان لزامًا على المؤرخ أن يكون واسع الثقافة، عالما بالعلوم المتصلة بدراسة التاريخ وكتابته. فالمؤرخ يحتاج إلى مجموعة من العلوم المساعدة التي تساعده وتعينه على الوصول إلى الحقيقة التاريخية.

ويمكن القول هنا إلى أن هذه العلوم، تختلف أهميتها بالنسبة للمؤرخ باختلاف العصر، أو الموضوع الذي يود دراسته والكتابة عنه. فمثلاً العلوم المساعدة لدراسة تاريخ مصر القديم، تختلف عن العلوم المساعدة لدراسة تاريخ الفتوحات الإسلامية. وهذا يعني أن المؤرخ ممكن

14 ـ عفت شرقاوي : **في فلسفة الحضارة الإسلامية** ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1985 ، ص 147.

أن يستخدم أحد العلوم المساعدة، عند دراسته لموضوع معين ولا يستخدمه عن دراسة لموضوع آخر.[15]

وعلى ذلك، يمكن تقسيم العلوم المساعدة في دراسة علم التاريخ إلى قسمين:

ـ أولهما: العلوم الاجتماعية

ـ ثانيهما: علوم الأركيولوجيا والتراث.

ولنبدأ بالقسم الأول ، وهو:

أولا ـ العلوم الاجتماعية:

يعتبر علم التاريخ فرعًا من فروع الدراسات الاجتماعية، ولذا فهو على صلة وثيقة بالعلوم الاجتماعية الأخرى كعلم النفس وعلم الجغرافيا وعلم الاقتصاد وعلم الإنسان. وهذه الصلة تجعل من واجب المؤرخ والباحث في التاريخ أن يكون لديه معرفة بهذه العلوم، إذ بدون هذه المعرفة لا يمكن أن يؤدي رسالته كباحث تاريخي بالصورة المطلوبة.

ومن أهم العلوم الاجتماعية التي يمكن أن يستفيد منها المؤرخ والباحث في التاريخ ، ما يلي:

1. علم الإنسان (الانثروبولوجيا):

إن المؤرخ لابد أن يكون على علم ودراية بأكثر العلوم التي تسانده على الإجادة والإفادة وفي مقدمتها علم الإنسان الذي يعتبر بالنسبة للأجناس البشرية مرآة حياتهم وحضاراتهم، ومن خلاله يستطيع الوصول إلى أفكارهم وعواطفهم الإنساني[16].

كما أن علم الإنسان يعتبر أقرب العلوم الاجتماعية ملائمة للتاريخ، لأن المشكلات التي يواجها علماء الإنسان والمؤرخون أغلبها مشتركة، والخط الفاصل بين هذين العلِمين غير واضح.فعلماء الإنسان يعكفون على دراسة ثقافة الإنسان البدائي، أما علماء التاريخ فيدرسون

---

15 ـ حسن عثمان: **منهج البحث التاريخي**، مرجع سابق، ص 25.

16ـ عبد العليم عبد الرحمان خضر: **المسلمون وكتابة التاريخ**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1995، ص 42.

الإنسان المتحضر. وتتفق مكانة علم الإنسان وعلم التاريخ في باب العلوم الإنسان العملية إذ إن مادتيهما ذات صبغة عامة، وأن علم الإنسان موجود كالميدان الذي يلتقي فيه كل من له اهتمام بالإنسان.[17]

إن علم الأنثروبولوجيا يتعرض إلى المسائل التاريخية عندما يتتبع التطور البشري وانتشار السكان على سطح الأرض، وبداية ظهور الثقافات والحضارات والهجرات والبناء الاجتماعي. ومن هنا أستطيع القول أن الثقافة تعتبر إحدى المفاهيم الكبرى لعلم الإنسان، كما أن التاريخ يعتبر سلسلة متتابعة من ثقافات متميزة، فكل تاريخ يتولد من ثقافة، كما أن كل ثقافة تتولد من تاريخها .[18] وفي الحقيقة، إن الثقافات محصلة التاريخ ونتاجه، إلا أن التاريخ يتأثر بطبيعة الإنسان البيولوجي وبيئته المادية. وغالبًا ما يكون هناك اقتران بين المنطقة الثقافية بالعوامل المعينة الأخرى التي تحدد المنطقة جغرافيًا. إن حياة شعب ما لا تنظمها ثقافته فحسب، بل هناك شراكه مع التحديات التي يفرضها الطقس وخصائص المكان والحيوانات والنباتات وغيرها من الموارد الطبيعية، والمكان بالنسبة للثقافات الأخرى.

فمن الممكن أن أقول: إن المفاهيم المتصلة بالثقافة والتغير الثقافي تزود المؤرخ بخلاصة العلاقات البشرية وطبيعة الثقافات الإنسانية قبل التاريخ، بالإضافة إلى تحليلها سواءً كانت شفوية أو مدونة.[19] يقول **هيوج أتكن:** « إن علماء الإنسان قد جرو من زمن طويل على الاعتراف بأن هناك طقوسًا ذات صبغة عامة كإقامة الجنائز وشعائر الموت»[20] .ومن هنا نشأت اللغات وتطورت الفنون عند الشعوب فإن المستفيد من ذلك هو المؤرخ عندما يبين حقيقة وأسرار الماضي ويتوصل إلى مؤشرات تاريخية من خلالها يستطيع أن يفسر كثير من العلاقات البشرية في الوقت الحاضر.[21]

---

17 - هيوج أتكن: **دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية**، ترجمة: محمود زايد، دار العلم للملايين، بيروت، ص27.

18- إسماعيل أحمد محمد ياغي: **مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه**، مرجع سابق، ص 266.

19- هيوج أتكن: **دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية**، مرجع سابق، ص ص 30-33.

20- المرجع نفسه، ص 34.

21- عبد العليم عبد الرحمان خضر: **المسلمون وكتابة التاريخ**، مرجع سابق، ص44.

خلاصة القول: إن التاريخ هو وعاء الخبرة البشرية، وهو العلم الخاص بالجهود البشرية أو محاولة الحصول على إجابات عن أسئلة تتعلق بجهود البشرية في الزمن الماضي وفيها نتعرف على جهود المستقبل، وبدون شك فإن التاريخ يصبح علمًا له أصول.[22]

2. علم الاجتماع:

هناك علوم انفصلت عن علم التاريخ، وعلوم أخرى اعتمدت على نفسها وسارت في طريقها مثل علم الاجتماع؛ والذي يدرس المجتمع وبنائه ووظائفه وعملياته ويركز على الأفعال والعلاقات الإنسانية. في الحقيقة، إن البحث التاريخي يعنى بالتغير الاجتماعي، وعلى ذلك فإنه يشمل ميدان علم الاجتماع حسبما يتضح في المنظور الزمني الذي يتخصص فيه الباحث. إن هناك قصور في المواد التاريخية التي يعود إليها المؤرخ وتتبعه لبعض مظاهر التغير الاجتماعي؛ مثل التغير السياسي والديني والعسكري. مما جعل اهتمام المؤرخين يتحول عن الإطارات الاجتماعية للمجتمعات القديمة، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن أغلب علماء الاجتماع ركزوا اهتمامهم الأكبر نحو دراسة الأنماط والمعايير التي يهيئها التفاعل الاجتماعي في مجتمعاتهم الحالية.[23]

إن المؤرخين قد يكتسبون أفكارًا ومدركات جديدة عن طريق دراسة ما كتبه علماء النفس وعلماء الاجتماع عن الأسرة والجماعة، فلكل مجتمع من المجتمعات آماله المرجوة ومثله العليا التي توجه أفراده ليعملوا بموجبها، وهذه المعايير الاجتماعية يجب على المؤرخ أن يكون ملمًا وعارفًا بها.[24] إن من الأمور التي يولي لها المؤرخون وعلماء الاجتماع الاهتمام دراسة (الطبقات الاجتماعية)، والتي يمكن تعريفها بأنها تجمعات أفراد ليس لهم غالبًا أي مميزات فارقة أصيلة. ومن المواضيع التي على المؤرخ دراستها دور الوظيفة الاجتماعية، بحيث تشمل هذه الدراسة مختلف الأدوار التي يؤديها الأفراد حين القيام بتلك الوظيفة، كما أن دراسة الانتقال في المجتمعات الصناعية المتقدمة من مرحلة العرف والعادات والتقاليد الشعبية إلى

---

22 - بارنز : **تاريخ الكتابة التاريخية**، ج1، نقلا عن عبد العليم عبد الرحمان خضر: **المسلمون وكتابة التاريخ**، مرجع سابق، ص43.

23 - هيوخ أتكن: **دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية** ، مرجع سابق، ص ص 34-36.

24 - هيوخ أتكن: **دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية** ، مرجع سابق ، ص 41.

العادات والتقاليد والأعراف المدنية، توفر للمؤرخين وعلماء الاجتماع فرصة ممتازة للتعاون.فيسهم في توسيع مجال الفكر والبحث عند المؤرخين، بل ويساعدهم في عملية تحليل محتوي البحث ومضمونه.[25] و خلاصة القول، إن هناك كثير من الوشائح والصلات بين كل من علمي الاجتماع والتاريخ، فعلم الاجتماع بفروعه المختلفة يساعد المؤرخين في دراسة وتحليل وفهم الأحداث التاريخية التي لا يمكن أن تحدث إلا في مجتمع أو وحدة اجتماعية وتتأثر بالأوضاع السائدة فيه.

3. علم السكان:

من بين العلوم التي ينبغي على المؤرخين الاعتناء بدراستها علم السكان؛ والذي يهتم بدراسة أحوال الشعوب وتكوينها وتوزيعها الجغرافي والمتغيرات التي تحدث فيها؛ مثل:نسبة المواليد والوفيات والهجرات .... إلخ. وغالبًا ما تستخدم بيانات ومعلومات هذا العلم من المصادر الرسمية، إما عن طريق قوائم الإحصاءات السكانية والتي يتم إجراءها في أوقات محددة، أو عن طريقة السجلات الرسمية، مثل: سجلات الزواج وسجلات الوفاة والولادة، وسجلات الهجرة إلى داخل البلاد وخارجها. فعلى الباحث أن يدرس العلاقة القائمة بين السكان والعوامل الأخرى المؤثرة في الدوافع الإنسانية المحركة للأحداث التاريخية.[26] خلاصة القول، إن علم السكان له صلات وثيقة مع العلوم الاجتماعية وخاصة علم التاريخ، وهذا يعود إلى توسعه في دراسات علم السكان وتفسيراته في هذا المجال واستعماله لبعض المفاهيم والمفردات.[27]

4. علم الجغرافيا:

لا يخفى على دراسي التاريخ أهمية دراسة الجغرافيا عامة؛ وجغرافية الإقليم المطروح للدراسة خاصة. وذلك لأن الجغرافيا – كما يقول الدكتور جمال حمدان – « قد تكون صماء، ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها، فالتاريخ ظل الإنسان على الأرض كما أن الجغرافيا ظل

---

25 - إسماعيل أحمد محمد ياغي: **مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه**، مرجع سابق، ص 269.

26- هيوج أتكن: **دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية**، مرجع سابق، ص 53.

27 - إسماعيل أحمد محمد ياغي: **مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه**، مرجع سابق، ص ص 265 - 266.

الأرض على الزمان. فالتاريخ – كما عبر البعض – ما هو إلا جغرافية متحركة، بينما الجغرافيا تاريخ توقف».[28] فلا يتصور – مطلقًا- فهم الإنسان، بدون دراسة البيئة الجغرافية التي نشأ وتربى فيها، إذ لا يخفى – على أحدٍ – أن أثر البيئة كبير على الإنسان، أو كما يقول الأستاذ **هنري بر**Henry Berr المشرف على صدور الموسوعة التاريخية الكبرى تطور الإنسانية في تقديمه للمجلد الرابع منها، وعنوانه: الأرض والتطور البشري، يقول: « لا ريب أن أثر البيئة قوى جدًا على الإنسان، فالجفاف، والرطوبة، والرياح، والضوء، والحرارة بل وكهرباء الجو تستطيع أن تُعدل من صفات الكائن الحي تعديلاً دائمًا أو مؤقتًا. سواء كان هذا الكائن حيوانًا أو نباتًا. إن البيئة – بلا شك – تركت أثرها القوي في تكوين الإنسان خَلْقًا وتفننًا[29].»

لا شك ــ إذًا ــ أن هناك علاقة وثيقة بين التاريخ والجغرافيا، فالأرض هي المسرح الذي وقعت عليه الحوادث التاريخية، فبدون الأرض لا يمكن أن تقع الحادثة. إن طبيعة الأرض ومصادرها وبما تتميز به من صفات، أثرت تأثير كبيرًا في بيئة الإنسان ووجهت ظروفه وحددت ملامح تفكيره. بل إن الظواهر الجغرافية من سهول وجبال وصحاري وأنهار وبحار والثروات الطبيعية والموقع الجغرافي كلها تؤثر في تكوين الإنسان الفسيولوجي والنفسي ونظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية،بل في سير معاركه وفي حربه وسلامه.[30] هذا، وقد لعب الموقع الجغرافي الاستراتيجي لبعض الدول دوارًا كبيرًا في تحركها نحو الحضارة والتجارة والتوسع وبناء الإمبراطورية. كما أن الطبيعة الجغرافية تتدخل أحيانًا تدخلًا حاسمًا في تغير مجرى الأحداث التاريخية.

ويضاف إلى ذلك، أن المناخ له دور كبير في حركة الإنسان وتقدمه الحضاري، فعندما يكون المناخ مناسبًا للحياة يكون الاحتكاك الاجتماعي أسرع. فعادةً ما تنشأ الحضارات من الاحتكاك المتمثل في البيع والشراء، بل إن المناخ يتدخل أحيانًا في تغيير مجرى بعض

---

28 ـ جمال حمدان : **شخصية مصر ـ دراسة في عبقرية المكان**، ج 1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2013، ص ص 7-8.

29 ـ نقلا عن: أحمد سيد محمد: **الشخصية المصرية في الأدبين الفاطمي والأيوني**، دار المعارف، القاهرة، 1992، ص 392.

30 ـ حسن عثمان: **منهج البحث التاريخي**، مرجع سابق، ص ص 32-33.

الحوادث التاريخية[31]. ويضاف إلى ذلك، أن للثروة الطبيعية أثرها الكبير في التاريخ، فغالبًا ما تنشأ الحضارات في السهول والوديان حيث المراعي والمزارع، فوجود نهري دجلة والفرات في العراق مكّن الإنسان منذ القدم من الزراعة والاستقرار وبناء الحضارة. فالدولة الغنية بهذه الموارد الأولية إذا كانت قوية فإنها تستغل هذه المصادر لتزيد من قوتها. وأما إذا كانت الدولة فقيرة ومتخلفة فإن وجود هذه الموارد الطبيعية على أرضها يكون سببًا رئيسًا للطمع فيها وغزوها[32].

وصفوة القول، أن علم الجغرافيا ضروري لدارسي التاريخ، ودورها مهم في فهم الأحداث التاريخية، فعلى الباحث في التاريخ إذًن أن يتعرف على الأحوال والعوامل الجغرافية المختلفة التي تحيط بالشعب أو بالعصر أو بالناحية التي يدرسها على النحو الذي يزيد من إمكانيته في البحث والدرس والفهم.

5. علم الاقتصاد:

علم الاقتصاد هو العلم الذي يعنى بدراسة نشاط الإنسان الاقتصادي وأنظمة الإنتاج التي عرفت عبر التاريخ، وهو يعتبر أحد العلوم المهمة المساعدة على دراسة التاريخ وفهمه بشكل صحيح. وذلك لأن العوامل الاقتصادية ذات أثر فعال على مسار التاريخ الإنساني[33]. إن الوضع السياسي في أي دولة ــ عادة ـــ ما يتأثر بالوضع الاقتصادي، فطريقة توزيع الثروات الاقتصادية، سواء المادية أو النقدية، على طبقة أو فئات من المجتمع له تأثيره على السياسة الداخلية، ويحدد علاقة هذه الطبقات والفئات مع بعضها البعض، ويفصح عن نظام الحكم ومستوى المعيشة، وفي مدى التقدم الحضاري الذي يحصل. فالدولة القوية اقتصاديًا عادة ما

31 ـ إسماعيل أحمد محمد ياغي: **مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه**، مرجع سابق، ص ص 260 - 261.

32ـ عيد سعيد مرعي : **منهج البحث التاريخي**، مرجع سابق، ث 48.

33 ـ حسن عثمان: **منهج البحث التاريخي**، مرجع سابق، ص 36.

يكون النظام السياسي فيها مستقر والعمران والرخاء مزدهر .[34] كما أن الوضع الاقتصادي له تأثيره في علاقات الدول الخارجية، سواءً العلاقات الاقتصادية أو العسكرية[35] أو السياسية. والجدير بالذكر،أن هناك ثلاثة ميادين مهمة من ميادين البحث الاقتصادي تهم المؤرخ، وهي: تحليل دورة العمل، والتقدم الاقتصادي، وتنظيم العمل[36].

وفي الختام يتضح لنا مما سبق ذكره، أهمية العوامل الاقتصادية في حدوث التغييرات التاريخية، وعقم أي محاولة لتفسير الحوادث التاريخية دون النظر إلى دراسة علم الاقتصاد دراسة مهمة.

6. العلوم السياسية:

لازالت الأحداث السياسية تشكل ملامح التاريخ العام وتلقي الجانب الأكثر من اهتمام من أغلب المؤرخين. إن علم السياسية يهتم في المقام الأول بتكوين الجماعة السياسية المؤثرة، وعلى العوامل التي تقف خلف صناعة القرار وطريق الحكم والسلطة ووضع الدساتير والعقوبات التي تصدرها الحكومات ضد المخالفين لأنظمتها. ومن أهم اهتمامات علماء السياسة أيضًا الاهتمام بالعوامل الحاسمة في رسم السياسة العامة للدولة وتنفيذها .ويعنون كذلك بنظم الحكم المقارن، والعوامل الاجتماعية التي تحرك القرارات السياسية وأصولها التاريخية وتحولاتها، والاهتمام بالنظام الذي ينسق المعتقدات السياسية، وهو ما يعرف بالأيدولوجية والتي تنبع من الفلسفة السياسية والقانونية. فعلى المؤرخ الاهتمام بهذا الجانب لارتباطه بالقرارات السياسية والتي هي بدورها تصبح أحداثها تاريخية. ومن خلال ذلك ممكن معرفة كيف تسير الدولة وكيف تعمل مؤسساتها التشريعية والقضائية، كما أن على المؤرخ المقارنة بينها وبين مؤسسات مشابهة أو مختلفة في بلاد أخرى، ليحقق المؤرخ أهدافه من الكتابة.

---

34 - إسماعيل أحمد محمد ياغي: **مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه**، مرجع سابق، ص 277.

35 - عيد سعيد مرعي : **منهج البحث التاريخي**، مرجع سابق، ص 64.

36 - عبد العليم عبد الرحمان خضر: **المسلمون وكتابة التاريخ**، مرجع سابق، ص ص 53-54.

ومن أهم الجوانب التي يعني بها علم السياسية، العلاقات الدولية التي تعرف بالدبلوماسية. ويعتبر هذا الجانب في غاية الأهمية للمؤرخين؛ وذلك لأن العلاقات بين الدول والمعاهدات والاتفاقيات التي تعقد بينها تشكل اتجاه السياسية العالمية، وقيام التحالفات العسكرية والقومية بين الدول، وكذلك قيام الحروب، وعقد المعاهدات. كل ذلك منبعه من علم السياسية من جهة، ومن جهة أخرى فهو المصدر الأول للمعلومات بالنسبة للمؤرخ[37]. ومن ميادين علم السياسية ـــ أيضًا ـــ تاريخ الفكر السياسي وتطوره وفكرة ظهور الدولة، وهي الوحدة السياسية للمناطق المتحدة. وهذا المجال يهم المؤرخ بل يعتبر من صميم عمله، فالتاريخ يبدأ من نشوء المجتمع الذي نسميه الدولة.

وفي الختام يمكن القول، إن كل ما يضعه علماء السياسية في الوقت الحاضر، أو تاريخ السياسية في الماضي من شروحات وتحليلات بين يدي المؤرخين، سوف تكون أداة مفيدة ونافعة تساعد المؤرخ على الإبداع في كتاباته ومؤلفاته التاريخية[38].

7. علم النفس:

يعتبر علم النفس من أهم العلوم التي يجب على المؤرخ معرفتها والإحاطة بها، وتأتي هذه الأهمية من أن معرفة نفسية الحاكم أو الزعيم وكل ما يتعلق بها من عقد ورواسب تكون سببًا في حدوث تغير في مصائر الأمم والشعوب[39]. ولكي يفهم المؤرخ تاريخ العلوم في بلد معين لابد من دراسة السيكولوجيا الاجتماعية، فبدونها من الصعب فهم التطور المادي في المجتمع. ونعني بالسيكولوجيا الاجتماعية هي العواطف والأفكار إلى تسيطر في زمن ما على طبقة اجتماعية معينة في بلد معين. إن دراسة السيكولوجيا الاجتماعية تساعد المؤرخ على أمرين في غاية الأهمية بالنسبة للبحث التاريخي: أولهما: تشخيص الحقائق التاريخية، وثانيهما: وضع تفسير ومبادئ لتفسير هذه الحقائق.

---

37 ـ إسماعيل أحمد محمد ياغي: **مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه**، مرجع سابق، ص ص 273-276.

38 ـ المرجع نفسه، ص 276.

39 ـ عبد العليم عبد الرحمان خضر: **المسلمون وكتابة التاريخ**، مرجع سابق، ص 55.

وما يمكن قوله في الختام، إن المؤرخ الذي لا يدرك أهمية علم النفس في دراسته لا يستطيع تحليل الوقائع التاريخية التي تنشأ بسبب هذه الأمراض النفسية تحليلًا سليمًا وسيشكل عليه الأمر ولا تستقيم له الأحكام[40].

8. الأدب والفنون:

يعتبر الأدب أحد العلوم المساندة للمؤرخ، حيث أن الأدب هو مرآة لحياة الشعوب، ومن خلاله يعبر الأدباء عن كل ما يجول في أفكارهم وأحاسيسهم ومشاعرهم وتفاعلهم مع الأحداث. كما إن الأدب يصور ما بداخل الناس من أحلام وأماني، ويرسم طبيعة الحياة في المدينة أو في الريف أو في الاقتصاد أو في الحرب والسلام[41]. إن الأدب له أهمية كبرى في دراسة التاريخ، وذلك لاحتوائه على كثير من المعلومات التي قد لا توجد في بعض المصادر التاريخية الأخرى.ففي تراث الشعوب وحضاراتهم القديمة نجد أعمالاً أدبية تذكر حوادث تاريخية متعددة، تصور حياة البشر من نواحي مختلفة. وبالتالي قد تكون مصدر من مصادر التاريخ التي يُعتمد عليها[42].

كما توجد في التاريخ العربي أعمال أدبية تساعد المؤرخين على معرفة التاريخ العربي وأهم الأحداث التي وقعت فيه، لذا فقد قيل: إن الشعر الجاهلي ـ ديوان العرب ـ . فمن خلال هذا الشعر يمكننا أن نتعرف على كثير من النواحي الاجتماعية والنفسية عند العرب في العصر الجاهلي.[43] خلاصة القول، إن علم الأدب يقدم خدمات كبيرة للمؤرخين بما يحتوي من معلومات تاريخية متنوعة في كل المجالات، فدراسة الأدب توسع عقل الإنسان وآفاقه وتجعله أقدر على الفهم والاستيعاب من غيره[44]. أما عن الفنون، فإن معرفة المؤرخ بالفنون المتنوعة من رسم وتصوير ونحت وعمارة، تساعده على فهم تاريخ العصر المراد دراسته.فمن خلال دراسة هذه الفنون يستطيع التعرف على كثير من المناطق التي وجد فيها الإنسان، كما أنها

---

40 ـ إسماعيل أحمد محمد ياغي: **مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه**، مرجع سابق، ص271.

41 ـ حسن عثمان: **منهج البحث التاريخي**، مرجع سابق، ص 38.

42 ـ عيد سعيد مرعي : **منهج البحث التاريخي**، مرجع سابق، ص ص 71-72.

43 ـ المرجع نفسه ، ص 73.

44 ـ حسن عثمان: **منهج البحث التاريخي**، مرجع سابق، ص 40.

تبين لنا كثيرًا من خفايا حياة الإنسان من حيث العادات والتقاليد والأخلاق .... إلخ [45]. لذا، فإننا نجد كثيرًا من الجامعات والمعاهد في أنحاء العالم قد أدركت أهمية الفنون فجعلت هذا النوع من الثقافة في المناهج الدراسية كما خصصت لها كرسي خاص بالأساتذة[46].

مما سبق يتضح لنا، أن الفنون بشتى أشكالها تخدم سائر الدراسات الإنسانية والعلمية والتي يأتي في مقدمتها علم التاريخ، كما أن دراسة شيء من هذه الفنون تساعد على فهم هذا العصر ومن ثم براعة الكتابة عنه.

ثانيًا: علوم الآثار والتراث:

إن علم الآثار أو الأركيولوجيا (Archeology) : هو فرع من فروع علم الإنسان الذي يركز على المجتمعات والثقافات البشرية الماضية وليس الحاضرة . وتدرس تحديدًا المصنوعات الحرفية كـالأدوات والأبنية والأوعية ... إلخ وما بقي منها، والتي استمرت بالتواجد للوقت الحاضر. كما يدرس أيضًا الحفريات الإنسانية والبيئات الماضية لكي يُفهَم مدى تأثير القوى الطبيعية كـالمناخ والطعام المتواجد ــ على سبيل المثال ــ على تشكيل الثقافة الإنسانية. هذا وقد تعددت علوم الأركيولوجيا فأصبح لها أهمية كبيرة في دراسة علم التاريخ ، ويأتي في مقدمة هذه العلوم:

1. علم المسكوكات(النميات):

هو العلم الذي يهتم بدراسة النقود والمسكوكات وتطورها عبر العصور. فالمسكوكات تعتبر أحد أهم مصادر دراسة التاريخ المهمة. فالعملة المسكوكة والأنواط بما تحمل من رموز وصور الآلهة وصور الملوك والأمراء وأسمائهم وتاريخ ضربها وذكرى الحوادث التاريخية

45 ـ عيد سعيد مرعي : **منهج البحث التاريخي**، المرجع السابق، ص 74.

46 ـ حسن عثمان: **منهج البحث التاريخي**، المرجع السابق، ص 44.

ونوعية المعادن المسكوكة فيه، تقدم للمؤرخين معلومات تاريخية قيمة عن مختلف نواحي الحياة قديماً[47].

إن المسكوكات (النقود) القديمة مرآة الاقتصاد في عصرها التي ظهرت فيه، لأن الغرض من سك النقود هو تسهيل النشاط التجاري حيث كان التعامل قبل ظهور النقود بقطع المعادن الثمينة، مثل: الذهب والفضة[48]، ونظرًا لشدة التنافس على الحركة التجارية بين المدن تدخلت حكومة الدويلات ووضعوا أختامهم عليها لضمان نقاوة معادنها ووزنها [49]. يقول أحد الباحثين المعاصرين: « إن دراسة العملة علم وفن وتاريخ، علم لأن لها أصول وقواعد، وفن لأن العملة مجال دراسة فنية وتصويرية، وتاريخية لأنه يسهل تصنيفها زمنيًا وحسب الأماكن التي ضربت فيها، فضلاً عن النقوش والتواريخ التي تحملها العملة. ولهذا ساهم علم دراسة النقود مساهمة كبيرة في إثراء المعرفة التاريخية ببلدان العالم القديم والحديث، خاصة عندما تصمت الوثائق أو تعجز عن التعبير أو تكون نادرة »[50].

2. الأختام و الرنوك[51]:

تتصل الأختام بدراسة الوثائق، وهي التي نمهر بها الوثائق المتعلقة بالمكاتبات الرسمية للحكام أو الملوك. وقد استخدم الإنسان الأختام منذ أقدم العصور كوسيلة لإثبات الملكية، أو لتأكيد صحة قرار أو اتفاق أو معاهدة وخاصة من قِبل الملوك والحكام . هذا وتتميز الأختام بأشكالها وأنوعها المختلفة، ومن ذلك أختام الشمع الذي شاع استخدامه منذ أزمان بعيدة ولا

---

47 ـ حسن عثمان: **منهج البحث التاريخي**، مرجع سابق، ص 32.

48 ـ عيد سعيد مرعي : **منهج البحث التاريخي**، مرجع سابق، ص 65.

49 ـ إسماعيل أحمد محمد ياغي: **مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه**، مرجع سابق، ص ص 251- 259.

50 ـ إسماعيل أحمد محمد ياغي: **مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه**، مرجع سابق ، ص 254.

51 ـ **الرنوك** : فكرة الشعارات (الرنوك) بجانب علم الدولة قامت في عهد المماليك، واستخدم ليدل على شخصية واحدة محددة في الدولة، مثل منصب السلطنة أو أحد الأمراء، كلمة الرنك مصطلح فارسي كان ينطق بالجيم - أي رنج- إلا أنه انتقل للعربية بحرف الكاف ليصبح (رنك)، الذي يعني الشارة أو الشعار . *الرنك استُخدم للدلالة على الشارة أو الشعار الشخصي الذي اتخذه الحاكم أو السلطان لنفسه، كما استُعمل الرنك أيضاً للدلالة على الوظيفة التي كان يشغلها الأمير في البلاط السلطاني.*

يزال يستخدم في بعض المناطق إلى عصرنا الحالي. كما وجدت أختام من الرصاص استخدمت من قِبل الأمراء والملوك خاصة في أزمنة مختلفة، ووجدت أختام من الذهب في العصور الوسطى واستخدمت عند بعض الأسر الحاكمة إلى زمن قريب. ومن أشكال الأختام: المستدير، والبيضوي، والمثلث، والقلب، والصليب. وبالتالي، فإن معرفة أنواع الأختام وأشكالها والمواد المصنوعة منها تفيد الباحث بالتاريخ في التثبت من صحة الوثائق التي يقوم بدراستها[52].

ومن الجدير بالذكر، أن المسلمون والعرب عرفوا الأختام منذ القدم، واعتبر ابن خلدون الخاتم من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية، كما ذكر في كتابه أنه ثبت في الصحيحين أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أراد أن يكتب إلى قيصر الروم، فقيل له: إن العجم لا يقبلون كتابًا إلا أن يكون مختومًا، فأخذ خاتمًا من فضة وكتب عليه محمد رسول الله في ثلاثة أسطر، بحيث كل كلمة في سطر[53].

ومما سبق يتضح لنا أن دراسة الأختام شيء ضروري وهام لدراسة تاريخ فترة زمنية معينة، من حيث المادة المصنوعة منها وطريقة صنعه ومن خلال ما يمكن استنتاجه من معلومات من الرسوم والكتابات المنقوشة عليه. أما الرنوك، فهي: إحدى العلوم المساعدة في دراسة التاريخ، والمقصود به العلامات المميزة الخاصة بالملوك، أو الأمراء أو الأُسر والجماعات أو الأفراد التي تظهر على الأختام أو الدروع أو السيوف أو على ملابس العساكر والنبلاء أو على الأعلام لتمييزهم عن غيرهم والدلالة عليهم[54].

ولقد عرفت هذه الرنوك أو العلامات منذ القدم وحتى العصور الوسطى سواءً في أوروبا في الغرب أو عند المسلمين في الشرق.[55] ومن أهم هذه العلامات؛ الكأس والسيف والدواة والنسر والهلال وذيل الحصان والصليب. ثم صار للنبلاء والوزراء والقادة ورجال الكنيسة

---

52 ـ حسن عثمان: **منهج البحث التاريخي**، مرجع سابق، ص 31.

53 ـ ابن خلدون: **المقدمة**، ج1، مرجع سابق، ص 326.

54 ـ عيد سعيد مرعي : **منهج البحث التاريخي**، مرجع سابق، ص 62.

55 ـ حسن عثمان: **منهج البحث التاريخي**، مرجع سابق، ص 31.

وطوائف الرهبان وكبار الموظفين رموزًا خاصة بهم.[56] وصفوة القول: إن معرفة المؤرخ بالرنوك والعلامات الخاصة بكل جماعة أو سلطة أو فرد، تجعله قادرًا على إثبات صحة ما يجد من دروع أو أسلحة أو وثائق قديمة ونسبتها بشكل صحيح للعصر الذي تنتمي إليه.

3. علم الخطوط القديمة(الباليوجرافيا):

فكما أن لكل عصر لهجته المتميزة فإن لكل عصر خط يتميز به وتُكتب بها لغته، ويتطور هذا الخط عبر الزمان. وبناءً على ذلك، فإن علم الخطوط القديمة يدرس نشأة الخط الذي تكتب به لغة ما وتطورها ورموزها والتغيرات التي طرأت عليها والأدوات التي استعملت فيها[57]. إن هناك أنواع مختلفة من الخطوط القديمة تبقى كالطلاسم حتى يتعلمها الباحث ويتدرب على قراءتها. وقد ظهرت أهمية هذا العلم بعد أن استطاع الباحث الفرنسي (شامبليون) من حل أصول اللغة الهيروغليفية القديمة وذلك في عام 1798م، وأثبت أن ما نقشه قدماء المصريين على آثارهم لم تكن للزينة بل هي كتابة للغتهم [58] التي احتوت على أحداث تاريخهم وأهم أعمالهم.[59] وبناءً على ما تقدم يمكن القول، أن هناك ضرورة لدراسة هذه الخطوط حتى تحفظ للمؤرخ الوقت وتجنبه الوقوع في كثير من الأخطاء ويتمكن من الوصول للفهم الصحيح للوثيقة أو للنص الذي يدرسه.

4. الوثائق (الدبلومات):

يعتبر علم الوثائق من أهم العلوم الأساسية لدراسة التاريخ، وهي: تدل بمعناها العام على كل الأصول التي تحتوي على معلومات تاريخية سواء دُوِّنَ على الورق أو على غيره. أما معناها الذي اصطلح عليه الباحثون في التاريخ، فهي: الكتابات الرسمية - أو شبه الرسمية – مثل: الأوامر والقرارات والمعاهدات والاتفاقيات والمراسلات السياسية والكتابات التي تتناول

---

56 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

57 - عيد سعيد مرعي : **منهج البحث التاريخي**، مرجع سابق، ص 57.

58 - عطية أحمد القوصي: **علم التاريخ ومناهج البحث و التدوين التاريخي عبر العصور**، 1984، ص 124.

59- عادل حسن غنيم: **في منهج البحث التاريخي**، دار المعرفة الجامعية، ط1، الإسكندرية، 2015، ص 39.

مسائل الاقتصاد أو التجارة، أو عادات الشعوب، أو نظمهم وتقاليدهم وما يصيبهم من قوة أو ضعف، أو المشروعات أو المقترحات المتنوعة التي تصدر عن المسؤولين في الدولة أو التي تقدم إليهم ، أو المذكرات الشخصية أو البومات[60].

فينبغي على الباحث في التاريخ أن يتعلم المصطلحات الخاصة بالوثيقة، وأن يعرف نوع الحبر المستعمل في الكتابة والأقلام التي كتب بها وأنواع الورق المستعمل وخصائصه، وأن يتأكد من صحة الوثيقة من خلال وصفها وتحديد تاريخها ومصدرها وعصرها ومؤلفها ، فإذا تأكد من كل ذلك تكون الوثيقة جاهزة من قِبل المؤرخ. إن الوثيقة هي مصدر رئيسي يعتمد عليها المؤرخ في دراسته. فمعرفة مصطلحات الوثيقة وكيفية التعامل معها هي الطريقة التي تعين الباحث على الاطلاع على أسرارها، كما يتطلب من الباحث معرفة لغة الوثيقة والخط الذي كتبت به، وأسلوب الإنشاء الذي كان سائدًا في عصر تدوين الوثيقة والافتتاحات التي كانت تفتتح بها والخواتيم التي كانت تنتهي بها.

كل هذه الأمور ضرورية لدراسة الوثيقة التي تم اكتشافها في أماكن مختلفة وبأشكال متعددة طوال عصور التاريخ. ومن هذه الوثائق ما وصل إلينا بحالة جيدة والآخر في حالة سيئة، ويرجع ذلك إلى أسلوب حفظ الوثيقة والمكان الذي وجدت فيه[61]. ومن الجدير بالذكر أن الوثائق تنقسم ـــ عادة ـــ إلى وثائق أدبية ووثائق سياسية أو خطابات خاصة؛ وهي التي تتناول أحوال الناس وأوضاعهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية. كما أن هذه الخطابات تتميز بالصدق والحيوية ، لأن مصدرها عامة الناس البسطاء[62].

5. علم الآثار:

علم الآثار هو علم يعنى بدراسة آثار الإنسان، ومخلفاته من بيوت وقصور عاش فيها والقبور التي حوت رفاته والمعابد التي تعبد فيها والمنحوتات والأدوات المختلفة الحجرية

60 ـ حسن عثمان: **منهج البحث التاريخي**، مرجع سابق، ص 30.

61 ـ عطية أحمد القوصي: **علم التاريخ ومناهج البحث و التدوين التاريخي عبر العصور**، مرجع سابق، ص 126.

62 ـ إسماعيل أحمد محمد ياغي: **مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه**، مرجع سابق، ص ص 242- 243.

والمعدنية والفخارية وكل ما يتعلق بحياة الإنسان ونشاطاته في الماضي بكافة عصوره وفتراته الزمنية.

إن الإنسان له تاريخ طويل يمتد إلى ما قبل اختراع الكتابة ودراسة ما قبل ذلك يعتمد على ما يقدمه له دراسة آثار الإنسان المادية التي خلفها في المواقع والأماكن التي استوطنها أو أقام فيها منذ بداية ظهور الإنسان على الأرض .[63] هذا، وتتميز الآثار بأصالتها ومعاصرتها للحدث كما أنها غير قابلة للتحريف بعكس الوثائق المكتوبة فهي توضح كثير من جوانب الحضارات، مثل: الأحوال الاجتماعية والاقتصادية. وهناك كثير من المناطق والعصور يعتمد في التأريخ لها على الآثار أكثر من غيرها.

ورغم أن البحث عن الآثار قديم جدًا إلا أنه كعلم يعتبر تطورًا حديثًا قد لا يزيد عن مائة عام إلا قليلًا، مع ذلك فقد توصلنا معه إلى نتائج مبهرة. فينبغي على المؤرخ أن يشاهد بنفسه آثار العصر الذي يكتب فيه، وأن يقارن بينها وبين غيرها ويزور الأماكن التي اكتشف فيها الآثار ليستنبط ويستخرج منها بعض أحكامه التاريخية. كما عليه أن يبحث عن متعلقات أخرى لتعم الفائدة ولا سيما المخلفات الشخصية ، التي تعين وتساعد المؤرخين.[64]

صفوة القول :إن علم الآثار يقدم خدمات مفيدة جدًا لعلم التاريخ من خلال الكشف والبحث عن أثار الماضي ودراستها وتحليلها، كما أن الآثار المادية تقدم معلومات قد تعجز عنها الوثائق المكتوبة.

6. علم اللغات:

علم اللغات من أهم العلوم المساعدة التي لابد للباحث في التاريخ أن يتزود بها فينبغى على المؤرخ من معرفة اللغة الأصلية المتعلقة بالموضوع التاريخي الذي يرغب الكتابة والبحث عنه . لأن الترجمات ـــ وإن وجدت ـــ غير كافيه لتحصيل الثقافة العامة ، كما أنها غير قادرة على تلبية حاجات البحث ، إضافة إلى إمكانية كونها محرفة أو غير دقيقة وكلما كان

63- عيد سعيد مرعي : **منهج البحث التاريخي**، مرجع سابق، ص 51.

64 ـ سعد بدير الحلواني: **تأريخ التاريخ، مدخل الى علم التاريخ ومناهج البحث فيه**، القاهرة، 2002، ص ص 147-148.

الباحث مُلمًا بعدد من اللغات الأصلية القديمة أو الحديثة، اتسع أمامه أفق البحث والاستقصاء ويصبح أكثر قدرة على التعامل مع الموضوع بشكل صحيح واستخراج نتائج منطقيه.[65] وحتى يكون الباحث في التاريخ على اطلاع دائم بالأبحاث العالمية المتجددة التي تتعلق بمجال بحثه فينبغي عليه أن يلم بلغة أو أكثر من اللغات الأوروبية الحديثة كالإنجليزية والفرنسية والألمانية . وقد يرى الباحث أن تعلم اللغات – القديمة أو الحديثة – أمرًا صعبًا ولكن برغبة الباحث وجديته في تعلم هذه اللغة والصبر على ذلك تزيل هذه المصاعب.

مما سبق أستطيع القول، إن على الباحث أن يكون حريصًا على دراسة ما يلزمه من اللغات سواء كانت صعبة أو قديمة أو نادرة حتى يستطيع الرجوع إلى الأصول والمصادر التاريخية الأولى. وبدون ذلك لا يمكنه السير قدمًا في سبيل البحث التاريخي، وحتى يستطيع التعبير كما يريد بشكل سليم ودقيق وواضح[66].

7. فقه اللغة (الفيلولوجيا):

فقه اللغة هو: دراسة اللغة عبر الوثائق والنصوص التاريخية، وكيفية تطورها وانتقالها عبر الزمان والمكان . كما إنه علم يعنى بدراسة " الكلمات" وتاريخها وتطورها ، وتطور مضمونها ، وكلما بُعد العصر الذي هو موضوع الدراسة والبحث ازدادت الحاجة إلى علم فقه اللغة. إذْ لابد لفهم النصوص التاريخية من معرفة لغة ذلك العصر التاريخي المعين . واللغة عبارة عن كائن حي ينمو ويتغير ويتطور حسب ظروف المكان والزمان وامتزاج الحضارات والثقافات والشعوب. فكلمة ما قد تحمل أكثر من معنى، وقد تؤدي إلى معنى آخر في مرحله أخرى أو في مكان آخر.[67] ومما تجدر الإشارة إليه، أن هناك فرق بين علم اللغة وفقه اللغة . فعلم اللغة ندرسه كنشاط إنساني أو وسيله للتعبير ونقل الأفكار، فهو يبحث في قوانينها وقواعد تطورها . أما فقه اللغة فهو يدرس اللغة باعتبارها وسيلة إلى غاية، وهي دراسة الثقافة بما تشتمل عليه من عادات وتقاليد وديانات وآداب ، فإن الغاية لفقه اللغة هي دراسة الحضارة.[68]

---

65 - حسن عثمان: **منهج البحث التاريخي**، مرجع سابق، ص 26.

66 - إسماعيل أحمد محمد ياغي: **مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه**، مرجع سابق، ص ص 234- 235.

67 - حسن عثمان: **منهج البحث التاريخي**، مرجع سابق، ص 27.

68 - عادل حسن غنيم: **في منهج البحث التاريخي**، مرجع سابق، ص 38.

بناء على ما تقدم يمكن القول، إن فقه اللغة علم أساسي يساعد الباحث في دراسة التاريخ لفهم مضامين النصوص فهمًا دقيقًا، وإخضاعها للنقد والتثبت من صحتها ، وحتى لا يفسر ما يقرأ على غير الحقيقة المراد منها.

8. علم النقوش:

علم النقوش هو: العلم الذي يدرس الكتابات المنقوشة والمنحوتة على الأحجار والمعادن وعلى الأواني الفخارية أو التوابيت على اختلاف أغراضها، فمنها التذكارية أو الدينية أو شواهد القبور أو الكتابات الملكية[69]. إن لكل حضارة ـــ ولكل شعب ـــ نقوشها الكتابية الخاصة بها فمثلًا، هناك نقوش ثمودية، ونقوش سبئية، ونقوش حميرية، ونقوش أرمينية، ونقوش فينيقية، وغيرها. وبفضل اكتشافات الأثريين المتزايدة للنقوش فإنها تعتبر مصدرًا مهمًا تعطي المؤرخين الحيوية والتجديد وبدونها تتجمد المعلومات. ولهذا ستظل النقوش تقدم للمؤرخين المصدر والمادة. يقول الأستاذ **وودهيد** في كلامه عن النقوش:«إن المؤرخ عن طريق إلمامه ليس بالنقوش فحسب، بل بسائر العلوم المساعدة الضرورية ،تصبح مهمته أشبه بمهمة القائد الأعلى للجيوش في الميدان الذي يحرك فروع القوات المختلفة لصالح المعركة، ولا يشترط أن يكون دقيق الإلمام والخبرة بطبيعة عمل كل فرع ولا يتدخل فيه تدخلًا دقيقًا »[70].

نستنتج من هذا القول،أنه لا يجب على المؤرخ أن يصبح عالمًا في النقوش، بل يكفي معرفته بقراءة النقش وتحليله وكيفية استخدامه . وكلما كان المؤرخ ملمًا بنقوش لغة العصر الذي يدرس فيه كلما كان أقرب إلى المعرفة الأصلية. إن علم النقوش يحتوي على آلاف القرارات والمعاهدات القديمة التي تم نقشها على الحجر، وبعض من هذه القرارات ترتب عليها تطورات مهمة حدثت من آلاف السنين ، وهذا يعطي النقوش أصالتها وأهميتها، وبالتالي سيقرأها المؤرخ مباشرة وكأنه يعيش العصر الذي كُتبِت فيه.

---

69 ـ عيد سعيد مرعي : **منهج البحث التاريخي**، مرجع سابق، ص ص 58 – 59.

70 ـ نقلا عن : إسماعيل أحمد محمد ياغي: **مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه**، مرجع سابق، ص238.

وتسهيلا للبحث العلمي فقد لجأت الجامعات والأكاديميات إلى جمع النقوش المتفرقة في مجلدات منظمة، حتى توفر على الباحث مشقة السفر والبحث عن هذه النقوش[71].

هذه إذًا أهم العلوم المساعدة لدراسة علم التاريخ، فعلى الباحث أن يجتهد في تحصيل أكبر قدر ممكن من هذه العلوم حتى يستطيع أن يمضي قُدمًا في مسيرة البحث العلمي، وأن يقدم لأمته وللعالم أجمع مادة علمية جديرة بالبحث والمناقشة، بل إنه من خلال تحصيل هذه العلوم يستطيع أن يترك بصماته العلمية على صفحات التاريخ الإنساني.

71 ـ إسماعيل أحمد محمد ياغي: **مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه**، مرجع سابق، ص ص 236-242.